المـــرأة، المديـــنة، الســـياســـة (صيدا نموذجا)

نـــهى بـــيومي

مدخـل

تحمل ذاكرتي صوراً ضبابية عن نشاط النساء في صيدا، ومقولات شائعة تدعي أن ليس للنساء دور «بارز» ولا وجود لنشطات «مشهورات». وبشيء من التمعن في هذه الصورة المنوي البحث عنها، نجد أن حيثيات تاريخ صيدا المعاصر غير مدونة إجمالاً، والمبررات والدواعي الموجبة لدراستها لا يمكنها الارتكاز إلا على التاريخ الشفهي الساكن ذاكرة الناس والمعرض للاندثار. من الأفكار الشائعة في هذا المجال أن المرأة استبعدت من التاريخ المكتوب لأن الرجل كتبه، لكن بالنسبة لموضوعي فإن الاستبعاد قد طال تاريخ المدينة السياسي والاجتماعي والثقافي المعاصر. كأن الاستبعاد لا يطال فقط تاريخ النساء بل أيضاً تاريخ المدن المهمشة. يترتب على هذا الافتراض إقصاء تواريخ النساء في الذاكرة العامة وعليه نبدأ من الصفر، لأنه ليس لدينا مخزون تاريخي يساند بحثنا.

إن الترسيمات التي ذكرتها حول دور المرأة في صيدا لم تكن لتستفزني لو لم أعد إلى تاريخي الشخصي وأتذكر شقيقتي ـ رحمها الله ـ التي كانت حزبية في الخمسينات وأتذكر صديقاتها. بادرت إلى تقصي الموضوع، فاستعرت لغة المرأة كي أفتح ثغرة في الخاص الاجتماعي لأصل منه إلى العام السياسي. أردت تكسير جدار صمت

الذاكرة لأصوغ أشكال الوجود النسائي وأفتح آفاقه في المدينة لأعرف ماهية دور المرأة السياسي في مرحلة الخمسينات والستينات وحتى عتبات «الحرب الأهلية». كان لا بد لنا من إجراء مقابلات مع مجموعة من النساء[١]، لالتقاط خطابهن عن أنفسهن وعن الآخر والمؤسسات والمدينة، إنطلاقاً من المحطة التالية: كيفيات التسيس وأسبابه ومدى تداخل أبعاده والبنية الشخصية ومساراتها. هدفت هذه المقابلات إلى معرفة الدور السياسي للمرأة من خلال تجربتها المعاشة وذاكرتها. لكن بما أن هذا الدور لم يتم بمعزل عن الرجال، فإن العودة إليهم كانت ضرورية لمعرفة وجهة نظرهم حول الموضوع وكيفية معايشتهم لتلك الفترة بما حملته من تحولات ثقافية واجتماعية وسياسية[٢]. ولو اكتفينا بمقابلة النساء لاتخذ عملنا معنى آخر، فنحن لا نحاول إنشاء حيز جديد هو تاريخ النساء بقدر ما نريد تغيير اتجاه النظرة التاريخية من خلال طرحنا ـ لسؤال علاقة المرأة بالسياسي ومدى ممارستها له ـ لإدخال وجهة نظر المرأة ومعاشها في هذا التاريخ، لكن ليس بمعزل عن علاقتها بالرجل.

وإن طغت نظرة المرأة إلى دورها في هذا البحث، إلا أن نظرة الرجال لم تكن غائبة، هي موجودة في خطابات النساء، إنه الرفيق والأب والأخ والشريك. عنه تتحدث لتبين دوره في عملية انخراطها السياسي وردات فعله على هذا الدور. ووجدنا في هذا الجيل الذي تمثله العينة، رجالاً ونساء، توافقاً في وجهات النظر حول توكيد دور المرأة السياسي، ما عدا قلة من الرجال وصفته بالهامشي والثانوي، إذ تقاس الأهمية لديهم وتقيم على أسس القيادة والاحتراف والبروز، وبالتالي قلل من شأن هذا الدور أو تم تجاهله.

إن مفهوم السياسة تبعاً للتعريف التقليدي، يعني «مجموع الشؤون التي تهم الدولة، وطريقة إدارتها، وهو أيضاً أسلوب الحكم». لقد أدت التغيرات الثقافية والاجتماعية التي طالت دور المرأة إلى إعادة النظر في المفهوم التقليدي الذي لا يترك مكاناً فيه للمرأة لأنها لم تساهم في الأحداث السياسية الكبرى، ولم تقد البلاد. أما المفهوم الجديد الذي نعتمده فهو لا يركز على أمور الدولة وسياساتها الكبرى وقيادتها فقط، بل يتعامل مع

(١) عددهن ثلاث عشرة وأعمارهن تتراوح ما بين الأربعينات والستينات، ينتمين إلى فئات اجتماعية مختلفة.

(٢) قابلنا خمسة رجال، أعمارهم تتراوح ما بين الخمسينات والستينات، عايشوا تلك المرحلة اجتماعياً وسياسياً.

النشاط الإنساني في المجال العام. إذن، ينضح هذا المفهوم بأكثر من مجرد الانتماء إلى أحزاب أو تيارات سياسية. فالمهتم بالشأن العام والعامل في مجالاته هو مسيس ويمارس العمل السياسي. فلا نموذج واحد لشكل العمل السياسي الذي يقصي خبرات النساء في المجال العام ولا يعبر عن حياتهن، بل تتعدد النماذج بتعدد الخبرات. هكذا تدخل النساء في بؤرة الأحداث وتتفكك الأسوار التي تعزل العام عن الخاص فيتداخلان في حركة دينامية، تمثل دينامية الاجتماع الإنساني، مما يفتح أمامنا أبواباً جديدة لمعرفة التاريخ الاجتماعي السياسي.

يجهد هذا البحث كي يعرض أكثر مما يبرهن، فهدفه تعميق الملاحظة والتفسير، لذلك ارتأينا اختيار مقاربة نوعية دينامية تبرز التفاعلات بين قوى أدت إلى انخراط المرأة في السياسي[١]. ولقد اخترنا من أجل ذلك ثلاث معلمات parametre: **المدينة، المؤسسات التربوية والاجتماعية، والأحزاب**[٢]. فهل نحن نطرح وجود هؤلاء النساء من خلال دورهن السياسي كفاتحة لسؤال آخر حول ماهية العمل السياسي في صيدا الآن، ودور النساء فيه، ونحن على فاصل صغير من القرن الواحد والعشرين؟

---

(١) استخدمنا المقابلة المفتوحة لمعرفة دوافع الأشخاص ومنظومة القيم لديهم وتمثلاتها. وعليه تكون انطباع لدينا بأن هذه العينة تقدم لنا مرآة عاكسة للمناخ الاجتماعي والسياسي العام في المدينة وماهية دور المرأة الناشطة فيها بهذا المعنى نجد أن المقابلة المفتوحة أداة لا يستغنى عنها لفهم الدوافع والتمثلات لمجموعات معينة، كي تعبر عن أحاسيسها الحميمة ورؤاها الخاصة. فهي تعطي الكلام للفاعلين الأساسيين حول موضوع السياسة من وجهة نظرهم الخاصة ومن خلال الحديث عن أنفسهم وعن محيطهم وليس بصفتهم مثقفين يقيمون الإنشاء حول السياسة والمرأة. أمامي وضعوا مقاطع من حياتهم الخاصة والعامة، وكان لبعضهم الجرأة في نقدها وللبعض الآخر القوة في فتح مفهوم السياسة وفكفكة أطره الجامدة ليطال الثقافة والمعايير الاجتماعية.

(٢) دامت المقابلة ما يعادل الساعتين، وهي مقابلات مسجلة. العينة التي اخترناها محدودة كما ذكرنا ـ ١٣ امرأة و٥ رجال ـ لا يمكننا الادعاء أنها تمثيلية بشكل كامل ولا يمكن استغلالها كمياً. لكنها عينة ذات مدلول، وهي شيدت بطريقة متنوعة سوسيولوجيا ـ إلى حد ما. ذلك لأن بعض اللواتي اخترتهن كممثلات لاتجاه سياسي معين كن غائبات عن البلد بشكل مؤقت أو دائم، والبعض الآخر لم يتجاوب بسبب انشغالاته. كانت الحصيلة ١٠ نساء متزوجات و٣ عزباوات. بينهن ٩ نساء يعملن ٢ لا يعملن و٢ توقفن عن العمل. واخترنا نساء دخلن في الأحزاب: ٦ بعثيات، واحدة شيوعية، واحدة اشتراكية، واحدة منظمة عمل. وواحدة مناصرة للبعث وأخرى ماركسية، و٥ نساء ناشطات في الحملات الانتخابية: ٢ من بنات النواب، واحدة قريبة أحد النواب، ٢ من المفاتيح الانتخابية بالنسبة للرجال اخترنا واحداً بعثياً وواحداً ينتمي إلى تيار معروف سعد الشعبي وثلاثة عايشوا عن كثب تلك المرحلة سياسياً دون التزام حزبي.

أولاً: المدينة أو مساحة الاجتماع المدني: نظام الحياة المؤتلف

من أجل اكتناه المدينة والاتصال بها اخترنا ثلاثة مؤشرات: الجمعيات والنوادي، وفضاء المدينة: أحيائها وساحاتها، ثم المجال الحيوي للعائلة، معتبرين أنها مجتمعة تكشف بنية المدينة السياسية الثقافية الاجتماعية وموقع المرأة فيها[١].

١ ـ الجمعيات والنوادي

تبين لنا ندرة الجمعيات في النصف الأول من القرن العشرين إذ لم يتجاوز عددها العشرة[٢]. وأكد لنا عالم الاجتماع د. يوسف الجباعي أنه في بحثه عن الحركة النقابية منذ أوائل القرن العشرين لم يجد إلا جمعية نشر العلم والفضيلة وجمعية أخرى تعنى بالكتب، وأن المقاصد هي أقدم جمعية أنشئت في سنة ١٩٠٦[٣]، وكانت جمعية ذكورية. ولم تقم الجمعيات النسائية في تلك الحقبة تبعاً للنساء المستجوبات[٤]، إنما كان هناك أسماء نسائية شاركت في تحركات معينة[٥]. كما كانت النساء تقيم استقبالات في المنازل، يتحدثن فيها بكل المواضيع بما فيها شؤون البلد وأمورها السياسية تبعاً لتأكيد المستجوبات، فدحضن المقولة الشائعة أن النساء لا يتكلمن في السياسة. لكن ابتداء من الخمسينات بدأ تكاثر الجمعيات الاجتماعية بشكل مطرد، منها جمعية «جامع البحر» ذات النشاط الخيري، وجمعية «المؤاساة والخدمات» التي كانت ذكورية سابقاً، كما قالت هيام البزري، واليوم أغلب مجلس إدارتها من النساء. كما بدأت

---

(١) عن المدينة يقول توفيق عسيران إنها من أول المدن في لبنان التي مشت فيها النساء سافرات، وهي أقل مدينة فيها محجبات.

(٢) محي الدين القطب، **مجلة تاريخ العرب والعالم**، العدد ١٣٨ ١٩٩٢ ص٥٢.

(٣) يقر محمد راجي البساط أن فكرة جمعية المقاصد بدأت عام ١٨٧٧م وتأسست عام ١٨٨٩. أنظر **مجلة تاريخ العرب والعالم**، عدد خاص عن صيدا، تموز ـ آب ١٩٩٢ ص٧٧.

(٤) انظر المصدر نفسه. ص٥٥ حيث يؤكد محيي الدين القطب في مقالته حول تاريخ الجمعيات في صيدا وجود جمعية نسائية هي جمعية النهضة النسائية التي تأسست سنة ١٩٣٣، لكنه لا يذكر تاريخ توقفها عن العمل.

(٥) أمثال نزيهة عسيران ومجموعة معها اشتهرن بمواقفهن من مسألة الحجاب والسفور في مرحلة الأربعينات، يقول في هذا الصدد د. محمد المصري أن الشيخ عبد الله العلايلي أراد أن يلقي محاضرة في النساء، في مركز للكشاف على ساحة «ضهر المير»، وقيل إن النساء سيخرجن بعدها سافرات. بدأ اللغط في المدينة واستشاط غضباً مجموعة من الغوغائيين الذين لا يمثلون ثقلاً في البلد على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، راحوا يهددون برمي النساء بماء الفضة إن تجرأن على ذلك. يبدو أنه لم تحدث حركة سفور جماعية، لكن آثار هذا الحدث بقيت قائمة في المدينة وكان صداها واضحاً عند الشباب، كأن يقال لواحد منهم فشل في شيء ما «هالشباب من يوم هالسفارة انتزعوا...».

تظهر النوادي الثقافية والاجتماعية والتي كان دورها كبيراً في اختلاط الشباب بالبنات. وتقبل الأهالي هذا الأمر على أساس أنه يمارس في أمكنة رصينة اجتماعياً وثقافياً وهي بعيدة عن السياسة. من جهته يعتقد د. يوسف أن هذه الأندية كانت «ستاراً للحزبيين» إضافة إلى انتشار المسارح والسينما والأندية الرياضية[١]. لكن ازدهر الزخم الثقافي والسياسي في مرحلة نهاية الستينات وبداية السبعينات. فهل يكون أحد أهم أسباب الحرب اللبنانية القضاء على هذا الزخم، على هذا الجو المنفتح؟

٢ ـ الأحياء والساحات

يبدو لنا أن فضاء المدينة لم يشد النساء نحو الدفاع عن روح الجماعة العصبية في تلك المرحلة. آنذاك كانت دوائر الانتماء أوسع من دائرة المدينة والحي والطائفة والعائلة والبيت. كانت تكثف الإحساس بضرور الانفتاح وفائدته في مواجهة القضايا الوطنية والقومية وتقوي هوية الانتماء وتوسع أطرها. **فالمكان كان موحداً** وهذه أهم ملاحظة توصلنا إليها في هذا البحث، عكس ما حدث إبان الحرب الأهلية حيث تشظى المكان وبات الانتماء مثله متشظياً. والمكان الموحد والمنفتح سمح لحركة النساء ولفئة محدودة بطبيعة الحال، أن تتفاعل وحركة المدينة التي كانت تفسح مكاناً للمختلف ولم تكن بالتالي مهددة لنشاطها أو لرغبتها في التعبير السياسي.

هكذا كانت أحياء المدينة وساحاتها تجسد الانتماء الواسع والانفتاح فكانت شروطها الوعي بمسؤولية الجماعة في نصرة القضايا الوطنية والقومية، ولم تكن شروطها النفي أو الإلغاء. بأي حال لم يكن الانتماء قاسياً آنذاك ومضنيا. اختصرت نازك مجذوب هذه المسألة بقولها إن «الجو العام في المدينة كان استنهاضياً».. عبر وصفهن للمدينة استشفينا أهمية دور الساحات فيها، خاصة ساحة باب السراي[٢]، الساحة الوطنية الأكثر عراقة التي شكلت مركز الثقل في التحركات السياسية، فكانت قلب المدينة النابض بالحيوية وصورة فوران شبابها. ولم تكن النساء بعيدات عن هذه الحيوية المكانية، بل شاركن في إلقاء الخطابات فيها أيام الوحدة وأثناء الحملات الانتخابية، تبعاً لتوفيق عسيران، وفي التظاهرات التي كانت تنطلق من المقاصد لتصل إلى هذه الساحة كن في المقدمة كما ذكرت هيام البزري وفي مناسبات عدة، بدءاً من التظاهر دفاعاً عن

(١) مثل جمعية الأدب والثقافة والرابطة ونادي خريجي المقاصد، وكانت هذه الأندية نشيطة تستقبل شخصيات فكرية وعلمية وأدبية تهتم الناس بمتابعتها.

(٢) الساحة الأساسية في وسط صيدا القديمة.

الشخصيات الوطنية السجينة، هذه التظاهرة الشهيرة التي شاركت فيها النساء أطفالاً ويافعات أمثال نجاة عسيران[١] وحكمت الخطيب والحاجة عفيفة البابا اللتين روتا بتفصيل جاذب حيثيات هذا الحدث[٢]. كأن الزمان في ما مضى فتح أيامه لكل الأعمار والأجناس، للتعبير والانخراط في الحركة الجماعية والتداخل بها. آنذاك لم تكن التخوم عالية لتفصل بين الأعمار والأجناس في التحرك السياسي الجماعي، كانت الحدود ضبابية بحيث أنها تسمح للتداخل في حين وتمنعه في حين آخر.

أما تجربة النساء في أحيائهن فكانت مميزة، في هذا المجال تؤكد ناديا البزري أن الانتماء السياسي لحي «مكسر العبد»[٣] كان موزعاً بين يمين ويسار، لكنها كانت قادرة على استقطاب الجميع واستنفارهم في الملمات التي مرت على المدينة أو الوطن العربي. مما يعني أن جواً من الانسجام الاجتماعي كان يميز الأحياء بحيث يشعر الجميع بالمسؤولية تجاه التحديات والأزمات، خاصة تلك التي تتجاوز الانقسامات السياسية المحلية، مثل مؤازرة القضية الجزائرية أو الفلسطينية، أو مساندة قضايا إنسانية محلية.

لم تكن الفروقات فاقعة بين النخبة والجو العام، ولم تكن النخبة متحدية للتآلف السائد، بل كانت تتحرك ضمنه دون عزل الواحد للآخر، إنما كانت على بعد خطوات إلى الأمام منه، فكان التواصل سيد الموقف وليس القطيعة. يبدو من هذه التجربة كما لو أن قدرة مفهوم التواصل على اختراق المثبت أكبر من مفهوم القطيعة في المجتمع. بالتالي فإن نشاط المرأة السياسي لم يكن محاصراً في الحي، كان بإمكانها استكشاف المكان حولها والتثبت من مواطىء أقدامها والسير فيه. هذا ما أكدته النساء المنتميات إلى حي الوسطاني، اللواتي لم يغبن عن مكان لا يحمل صفات الانغلاق والحصار، بل يتيح المشاركة الجماعية، فالانتماء البعثي غلب عليه فكن إليه منتميات، مساهمات في التوعية السياسية لصالح الحزب أو لصالح القضايا الوطنية والقومية. إذن لم يتحكم معمار الحي في حركة النساء لتصير دائرية، وداخلية، بل أتاح اختبار الذات في الأمكنة الأوسع ـ المدينة.

بعد أساسي آخر يضاف إلى مسألة الانسجام الاجتماعي وهو الطائفي. تميزت صيدا

---

(١) عن دور نجاة عسيران في هذه التظاهرة التي كانت في مقدمتها، يقول أخوها توفيق «لم يكن عملاً بطولياً عن سابق تصور وتصميم.. إنما كانت المظاهرة بحد ذاتها عملاً بطولياً عام ٤٣ لأن هدفها استقلال لبنان وكانت المرحومة نجاة تتقن الفرنسية فتقدمت المظاهرة لتخاطب الضابط الفرنسي وحدث ما حدث..».

(٢) الملفت هنا مشاركة الأطفال في التظاهر في تلك الأيام، ما لا نشهده اليوم!

(٣) منطقة مدخل صيدا الشمالية.

بموقفها البعيد عن التعصب[١]، فاندمج الجميع في المدينة القديمة. فبالرغم من وجود حارة للمسيحيين خاصة بهم، إلا أنهم كانوا منتشرين في الحارات الأخرى وكان بيت المسلم مجاوراً لبيت المسيحي[٢]. قبل سنة ٥٦ لم يخرج المسيحيون من قلب المدينة[٣]، وحتى بعد خروجهم ظلوا يصرفون المال من أجل تحسين بيوتهم[٤] هكذا كانوا يعيشون في الأحياء الإسلامية، مساهمين بشكل فاعل في اقتصاد البلد[٥]. يعود ذلك إلى أن تاريخ صيدا موصوف بالتسامح وقبول الآخر[٦]، هذا ما أكدته الغالبية[٧]. كانت المدينة تسعى في اتجاه الآخر بغرض التكامل وليس السيطرة، وحضور الآخر لم يكن صراعياً في تلك المرحلة، حتى بالنسبة إلى الفلسطينيين. إن علاقة التكامل التي رصدناها ستنسحب على المناخ العام وعلى علاقات وأدوار النساء والرجال، في ظروف فتحت ثقافة المدينة وراحت تربطها بالغيرية، في جو من التصالح. غاب التعصب عن المدينة بشكل عام بفضل امتدادها اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً إلى البلدان المحيطة بها ـ فلسطين والشام ـ فاعتبارها الغيرية امتداداً لها يجعلها لا تنأسر في نموذج جامد[٨].

لم نتناول إلا بعض فضاءات المدينة وسماتها، للدلالة على انفتاح دوائرها بعضها على بعض ضمن مفهومها الخاص للغيرية والوطنية والقومية. سنعود إلى هذا الموضوع بتفصيل أكبر حين نلحظ رواج الأحزاب القومية في صيدا، وضعف الأحزاب الأخرى.

---

(١) كان من الحزبيات عناصر مسيحية للأسف لم أتمكن من مقابلتهن لدواعي السفر.

(٢) مثل بيت وديع أيوب قرب فرن العربي، تبعاً لمحمد المصري ـ وبيت آل افتيموس على ضهر المير.. وفي سوق الصاغة نجد عائلات الزهار وعودة والنحاس وشوكت النمور والغفري...

(٣) تاريخ الهزة التي دمرت أجزاء من المدينة القديمة أجبرت العديد من سكانها على هجرتها.

(٤) مثل بيت آل دبانة والذي عرف حدثاً سارا هو زفاف أحد أبناء العائلة. انظر كتاب **صيدا المدينة القديمة**، الذي أنجزته مؤسسة الحريري، ص١٨١.

(٥) في قطاع الصرافة والبنوك والصناعة. حتى أن هناك عائلات مسيحية من خارج صيدا إلا أن تجارتها كانت داخل المدينة، أمثال آل الخوري ونصار.

(٦) يروى مصطفى حجازي عن والدته التي أخبرته أن جدها حمى الرهبان المسيحيين بالقش سنة ١٨٦٠ ـ التجأ المسيحيون من الجبل إلى صيدا للاختباء ـ مضيفاً أن أحد الدروز كان يحمل ساطوراً في يده يريد الانتقام لمقتل أقاربه، فوقف في وجهه جد والدته.

(٧) نجد الموقف عينه من اليهود الذين مارسوا التجارة في المدينة.

(٨) تحدثت ماجدة فاضل عن تجربة اندماجها وهي من كفرتبنيت، وكذلك شدد غسان شرارة عن هذا الأمر جاعلاً منه عنصراً أساسياً ساهم في انفتاح المدينة وتطورها.

ثانياً: دور المؤسسات التربوية

لعبت في صيدا ثلاث مؤسسات تربوية دوراً في تعليم البنات وتكوينهن ثقافياً وسياسياً: المقاصد، الإنجيلية، الرسمية. سنتناول بتفصيل أكبر المقاصد لأن معظم المستجوبات درسن فيها، وبمراحل مختلفة، وأيضاً لما تميزت به هذه المؤسسة من فعالية على صعيد المجتمع عامة. مما يساعدنا في دراسة الديناميكية الاجتماعية السياسية وموقع النساء فيها، كما أنه يكشف الواقع المعاش لهؤلاء النساء، بعيداً عن النماذج المتفق عليها اجتماعياً وسياسياً.

● المقاصد

لكي نفهم بشكل أوضح طبيعة تعليم المرأة في المدينة، من المهم معرفة نوعية التعليم ومدى ارتباطه بالمسار السياسي المحلي والوطني والقومي، وإذا كان هذا يتطلب دراسة مستفيضة. إلا أن جلاء بعض النقاط يمكن أن يظهر بعض المؤشرات الخاصة بأسباب تسيس المرأة ونوعيته. سوف أركز على دور المقاصد الوطني وانفتاحها الديني والاجتماعي. يبدو أن دور المقاصد الوطني ـ إضافة إلى دور الأحزاب ـ هو الذي فتح مجال التعبير للنساء عن أنفسهن. فهي التي أتاحت لهذه الأقلية البروز وأن تصبح ظاهرة في المدينة، من حيث مشاركتها في الشأن العام، حتى ولو كانت أدوارها صغيرة! كما يقول د. يوسف الجباعي[١].

إن آليات العمل في المؤسسة وبرامجها وخياراتها أتاحت للنساء اكتساب ثقافة سياسية، أدت إلى اهتمامهن بالشأن العام. كان لنظامها التربوي توجه مسيس باتجاه قومي عربي يهدف إلى الوحدة، وبالتالي تأثر الطلاب بهذه الاتجاه السياسي فحملوا رايته[٢]. كان من الطبيعي وضمن توجهها هذا أن تستقبل الطلاب العرب، الذين أدى وجودهم إلى خلق جو تفاعلي وحواري استقطب الطاقات الجديدة.

هذا على صعيد البرامج، أما من حيث علاقتها السياسية الوطنية فكان لها دور بارز منذ الأربعينات، إذ أسست جمعية خطابة موجهة ضد الاستعمار الفرنسي كان من

(١) فهو يؤكد اتجاه المقاصد المناهض للاستعمار الفرنسي والمتجاوب مع حركات التحرر العربية والعالمية.

(٢) مما جعلها تستقبل الفلسطينيين فكانت كما قالت نازك مجذوب «سيدة الموقف» سنة ١٩٤٨. وكررت هذا الدور في مراحل لاحقة.

سماتها المهمة أيضاً انفتاحها على تعدد الأديان، فاتصف الجو بالتسامح. كذلك الأمر استوعبت التيارات السياسية[١]، إذ كان من بين أساتذتها شيوعي مع أن المدير آنذاك كان قومياً عربياً[٢]. إضافة إلى قبولها طلاباً وأساتذة ومدراء من خارج المدينة وأحياناً البلد ـ مثل Berque، مما خلق جواً من التفاعل مع أفكار أخرى ونماذج من خارج المدينة، كما قال غسان شرارة، وأتاح لبعض الأساتذة لعب دور مهم في تحديث الوعي والتكوين الفكري والسياسي[٣]. حتى قبل الأربعينات لعبت المؤسسة دوراً مهماً بسبب غياب الأحزاب آنذاك، فكان للمعلمين دور وطني[٤].

هذا الاستقطاب النوعي المؤسس على التنوع والاختلاف، أدى إلى تبلور الطاقات الشابة وخصوصاً النساء، فشكلت المدرسة إطاراً مهماً لوعي جديد يناوىء الوعي التقليدي في ما يخص دور المرأة في المجتمع. فمنذ بداية تأسيس مدرسة البنات تواجد العنصر النسائي الفاعل في المدرسة: معلمات ومديرات وناظرات ساهمن في ترسيخ وجود المرأة في المجال المهني[٥]. امتدت المؤسسة إلى المجتمع من خلال طلابها، وهذا يتوافق مع دورها التاريخي بحيث أنها كانت والمدينة شيئاً واحداً وفي تلاحم عضوي. بعض تلاميذ المقاصد أسسوا نادي الرابطة الثقافي[٦]، وبعضهم الآخر نادي الخريجين.

يعود أيضاً دورها الكبير في المدينة إلى أنه في مقابلها تواجدت مدارس إرسالية: الفرير، الإنجيلية. لكن هذا لم يمنع الإنجيلية من تخريج عناصر وطنية، ففي كنفها درست هيام البزري ومهى لطفي ونبيهه لطفي وديانا السمرا[٧]... لكن يرى البعض أن

(١) ففي سنة ١٩٥٨ ساهمت مع الجيش الشعبي والذي كان مقره بقربها في استقبال الجرحى وتوزيع المؤن. وسنة ١٩٦٧ تجندت المدرسة لجمع التبرعات، وحين هجر أبناء الجنوب سنة ١٩٧٨ فتحت لهم أبوابها.

(٢) يؤكد محمد المصري وجود أستاذ يهودي لمادة الرياضيات في المدرسة.

(٣) أمثال عفيف الشريف و«الزعيم» حسيب البزري ونازل المجذوب...

(٤) مثل سليم المجذوب وشفيق النقاش. ففي سنة ١٩٣٦ نفذ إضراب في المدينة ذهب من جرائه بعض القتلى، شاركت المقاصد فيه.

(٥) نذكر منهن المديرة رئيفة يماني والناظرة نعمت أسير.

(٦) أمثال معين الزين، حسيب البزري، بهاء البساط وأحمد أبو علفا ومعروف سعد.

(٧) أكدت هيام البزري أنها مارست وزميلاتها الاهتمام بالقضايا العامة، كالمشاركة في التظاهرات في الخمسينات وفي إغاثة اللاجئين.

المقاصد مثلت صيدا، بينما مثلت الإنجيلية «البرجزة والفرنجة»، فكان تطورها من خارج المجتمع. اهتمت المدرسة الإنجيلية بتقديم برنامج رعائي خاص بالنساء من أجل الترقي الاجتماعي. ربما أدى هذا إلى فتح الطريق أمام بناتها للاهتمام بالعمل الاجتماعي[١]. لكن تبقى هذه المدرسة على أهمية دورها إرسالية في نظر الأغلبية، فكان دورها هامشياً إذا ما قورن بدور المقاصد.

هنا علينا التأكيد أن معظم المستجوبات درسن في ثانوية المقاصد، مما يدل أن معظمهن انتمين إلى الفئة الميسورة، بالتالي فإن دور النساء في المجال العام ارتبط في أحد أبعاده باليسر المادي...

من الملاحظ أيضاً ضعف المدارس الرسمية في تلك المرحلة إذ لم تفرز نساء اهتممن بالشأن العام. ذلك لأن طلابها كانوا من الفقراء والهامشيين الذين لم ينخرطوا في دورة المجتمع إلا أن دورها بدأ يتعاظم في أواسط الستينات ولغاية الحرب حين شكلت إطاراً ديمقراطياً لتعبير التيارات السياسية المتنوعة، كما ذكرت حكمت الصباغ. أما ديانا السمرا فإنها وصفت الجو الوطني الذي كان سائداً في ثانوية البنات بإدارة حكمت الصباغ حيث كانت الأجواء ماركسية وناصرية وكتائبية، فمارست الحلقات الحزبية الطلابية نشاطها. إذن كان الجو صحياً لأنه سمح بتنوع التيارات السياسية.

هذا كله أهل المقاصد لتكون إطاراً مناسباً لتفتح الشباب واهتمامهم رجالاً ونساء بالعمل الوطني السياسي. فهي تحولت إلى «فندق ثقافي»، يأتي المحاضرون إليها من بيروت ومن خارج لبنان، وكانت الطالبات يشاركن في الحضور والاستماع. مما يعني أنه من الصحة القول أنها أتاحت تعليم البنات وعززت وعيهن بالقضايا الوطنية كما أتاحت لهن التمكن من ثقافة عامة، مما بلور طاقاتهن فدفعهن للاهتمام بالشأن العام. لكنها لم تحد كلية عن الجو المحافظ في المدينة. لم يكن خروج النساء إلى الشأن العام طفرة بل كان كل شيء في المدينة في طور التغير. فكن هناك تكامل، ولم تكن المرأة مستبعدة عن هذه الدينامية. نذكر في هذا الصدد حادثة في مدرسة البنات، رواها لنا د. يوسف، تستنطق علاقة المدرسة بالمجتمع وكيفية التداخل بينهما، لدرجة أن زهوة حددتها بهذه المعادلة: المقاصد هي صيدا وصيدا هي المقاصد. أقامت مدرسة البنات

(١) أبرزهن سعاد الصلح، والتي هي الآن عضو في البلدية.

في نهاية العام مهرجاناً رياضياً، ظهرت فيه البنات بالشورت، بدأ على أثر ذلك لغط في المدينة من قبل المتزمتين. تشير هذه الواقعة إلى الجو العام في المؤسسة الذي مكن الفتاة من الانطلاق والتحرر من بعض القيود التقليدية، لكن بتحفظ. فتميز الجو العام في المؤسسة بالانفتاح والاختلاط، كما كان الأهل في بعض الحالات أكثر انفتاحاً من المجتمع التقليدي الذي تعكسه إدارة المدرسة. طبعاً شكل هذا الموقف حافزاً للبنات للاندفاع في الحقل العام والتقدم خطوات باتجاه تغيير أدوارهن. كما اتسم جو المدرسة بالديمقراطية، «إذ كان بإمكاننا التظاهر ضد المديرة، كما قالت عناية مجذوب»، كما أسسن نادياً ثقافياً اجتماعياً في المدرسة[1] ينظم مهرجانات ودورات رياضية تجريها المدرسة.

توافقت جميع المستجوبات حول تأثرهن بالأساتذة والطلاب الذكور، أكثر من تأثرهن بالنساء لكن تقر زهوة مجذوب بأن النماذج البارزة والتي مثلت القدوة لها، لم تكن من بين المدرّسات إنما من بين الطالبات الأكبر سناً منها، تذكر منهم سميرة بيومي «التي كانت تفرض على الإدارة الشيء الذي نحبه»، وثمة نموذج آخر جمع بين الأنوثة والسياسة: نهى عطا الله. في النهاية أقرت غالبيتهن الدور الكبير للمقاصد في عملية تسيسهن، فهذه المؤسسة ذات الدور الوطني والتوجه العربي أتاحت النشاط السياسي للطلاب في إطارها، فتركت لبعض الأحزاب مجالات التعبير. وتكونت مجموعات ناشطة حزبياً من الطالبات، هدفها التوعية في كل المواضيع السياسية في لبنان وخارجه. كانت هذه بعض النشاطات السياسية التي كانت تقوم بها الطالبات في المدرسة، وكانت هذه هي الانطلاقة الأولى بالعمل السياسي.

نستخلص مما عرضنا الدور الأساسي الذي لعبته المدارس في صيدا وإن بدرجات متفاوتة في التفتح الفكري والاجتماعي للنساء، وفي دفعهن إلى الاهتمام بالقضايا السياسية المحلية والعربية، فهي كانت نقطة الإنطلاق في العمل الوطني[2]. إذن الخطوة الأولى في العمل السياسي تمت في إطار المدارس لتنطلق فيما بعد إلى خارجها. أوجزت هيام البزري هذه الخلاصة قائلة: «إن جميع النشاطات في البلد كانت تنطلق من المدارس وكذلك الزواج كان يتم فيها».

(١) تقول عناية: «كنا نسمع أغاني عبد الوهاب وعبد الحليم ونرقص عليها في الفرص».

(٢) هذه الملاحظة تستدعي حشريتنا لمعرفة دور المدارس اليوم في صيدا وهل تغير هذا الدور؟

هكذا جسدت المقاصد تطلعات الناس وخياراتهم، وتواصل دورها في المجتمع من خلال نادي خريجيها الذي شكل آلية جديدة للعمل السياسي الاجتماعي تدل على تحول حركة المدينة باتجاه الشباب والشابات المتعلمين، إلى حركة تحمل تعبيراً دالاً على هويتها التغييرية خاصة على الصعيد الاجتماعي. كان في المدينة قطبان سياسيان نزيه البزري ومعروف سعد. وكان مقابلهما نادي خريجي المقاصد كقطب سياسي آخر. شكل النادي أكبر تجمع للشباب والشابات حيث شاركت النساء في جميع أنشطته، وفي هيئته الإدارية. كما لعب النادي دوراً ضاغطاً لإدخال النساء في الهيئة العامة لجمعية المقاصد. من النتائج المهمة لوجود النساء في النادي على الصعيد الاجتماعي، هو الاختلاط والبحث عن فرص للزواج لتجاوز التقاليد، إذ كان مقبولاً من الأهل ومحترماً خروج البنات إليه، فشكل فرصة لهن للخروج من المجال الخاص إلى المجال العام. آنذاك كانت النساء في طفرة الخروج إلى الدنيا اجتماعياً، سياسياً وثقافياً وعاطفياً مثلما كانت الحياة فوارة سياسياً وثقافياً واجتماعياً. تميز النادي بانفتاحه على حركات التحرر العالمية، فكانت انتفاضة الشباب بعد انتكاسة ٥ حزيران والتي استقطبت غالبيتهم حركة فتح، كما كانت موجهة ضد النظام للمطالبة بالحريات العامة ومؤازرة التحرك العمالي لنيل مطالبه. وكانت الخريجات يشاركن في كل هذه التحركات، إذ كان لدى الجميع إحساس بضرورة القيام بعمل ما.

شكل هذا المناخ العام الذي عاشت فيه هؤلاء النساء فضاء رحبا ومرنا لتحركهن مما أدى إلى توسع دورهن خارج إطار المدرسة، مستندات إلى أطر مرجعية.

ثالثاً: نشاط النساء السياسي في المدينة

١ ـ الحركات السياسية

أردت معاينة مرحلة من تاريخ مدينتي وأنا مقتنعة أن التاريخ هو قبل كل شيء مسار ـ كما قال أوكتافيو باز في كتابه **مسار**[١] أي بحث، ذلك لأنه حركة وكل حركة هي ذهاب في اتجاه ما. فهدفي في نهاية المطاف إحلال الديناميات الجماعية في التاريخ لأؤكد أنها ساهمت في صنعه ولا يجوز إغفالها، كي نقضي على القسمة الثنائية بين

(١) Octavio paz, **Itineraire,** Callimard, Paris 1996, p.30.

تواريخ الرجال وتواريخ النساء[١]. وعليه فإننا وجدنا المدينة كمجال مجتمعي وشخصي تمتاز بالوعي السياسي والاهتمام بالشأن الوطني والقومي: «كانت تهتم بشؤون العرب: أغادير، الجزائر، فلسطين. وهذا الوعي انبثق من وجود النشاط السياسي والأحزاب والمقاصد»، تقول هيام البزري. لكن هذا الموقف السياسي كان قائماً حتى قبل نشوء الأحزاب[٢].

إذن كان اتجاه المدينة السياسي المحلي، كما حددته الأغلبية، مناصراً لقضايا الناس الاجتماعية، فصيدا انتصرت لنزيه البزري ممثل التيار الشعبي حين كان في وجهه صلاح البزري الذي اعتبر ممثلاً للإقطاع، كما قالت عناية مجذوب، ثم انتصرت لمعروف لتمثيله أيضاً التيار الشعبي. من ناحية أخرى تؤكد منى سعد على تماسك المدينة العضوي، بمعنى أن التناقضات السياسية لم تؤثر على العلاقات الاجتماعية، وتثير مسألة التزاوج مع الفلسطينيين لتؤكد أن المدينة أدمجتهم في بنيتها ولم تعاملهم معاملة الغرباء. فتستنتج أن انتماء المدينة الثقافي كان عربياً وعالمياً أيضاً. نتيجة لذلك سيكون من الطبيعي إنتشار الأحزاب القومية، خاصة حزب البعث والحركة القومية العربية واستقطابهما الطاقات الشابة. وبالتالي ستنتمي معظم النساء إلى هذين التيارين القويين في المدينة والمتجذرين في المجتمع، متماشيات بذلك مع الجو العام[٣].

---

(١) لقد استفدت هنا من تحليل حسن قبيسي للفكر التاريخي في كتابه: **المتن والهامش**، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٧ ص١٣٦.

(٢) في حوادث ١٩٣٦ وبعد القيام بالإضراب العام احتجاجاً على الاستعمار الفرنسي والذي انتهى بعدد من الضحايا، يقول محمد المصري، ذهب الوفد السوري إلى فرنسا من أجل استقلالها، حينذاك صدرت إشاعة مفادها أن سوريا تريد طرابلس ميناء لها، فارتفع صوت الناس في صيدا يريدون أن تكون صيدا ميناء لسوريا. يبدو أن الفرنسيين تضايقوا من الأهالي وقرروا ضربهم. أثناءها كان بهيج الجوهري رئيس البلدية، فطلب منه الفرنسيون المساعدة، فرفض واستقال، فحل محله صلاح البزري. كانت تهتف الناس حينها «صيدا أسكلي ـ أي ميناء ـ للشام».. تطورت بعدها الأمور فصنع الأهالي هراوات ووضعوا في طرفها العلم السوري. أضربت المدينة ١٣ يوماً وأراد الدرك تربية الناس مدفوعين من الفرنسيين، فتم الاصطدام الذي قتل فيه عبد الحليم الحلاق، صديق معروف سعد، الذي بدأت شهرته من وقتها. فحين وجد صديقه محمولاً ودماءه سائلة، هجم على «القشلة» مريداً الانتقام لصديقه، فأصابوه في كتفه وأسروه. تظاهرت المدينة مطالبة بالإفراج عنه، أخذوه إلى بيروت فأضربت المدينة.. بعد محاكمته التحق بالثورة الفلسطينية، كما يقال إنه اشترك في الثورة العراقية.

(٣) على هذه الخلفية سيكون مفهوم أيضاً عدم انتشار الحزب الشيوعي في تلك الفترة، وانتساب أقلية إليه، ولم يعرف من بينهم امرأة. لأنه من ناحية، لم يكن منسجماً مع التيار المسيطر على المدينة، فهو كان حركة سرية معرضة للملاحقة. ومن ناحية أخرى، كان ضد الناصرية، التيار الشعبي المهيمن على المدينة. بالمقابل كانت الأحزاب الدينية ضعيفة، فبين الخمسينات والستينات كان لحزب التحرير الإسلامي الذي

هكذا تلمسنا الأرضية الاجتماعية السياسية التي كانت مجال تحرك النساء وتشكيلاتها السياسية ممهدين لفهم دوافعها الفردية وتواريخها الخاصة. فنستخلص تكامل المعلمات الثلاث في خلق المناخ العام لتحركهن. مناخ اتسم «بالفوران» السياسي والثقافي، وبتكسير الأطر المدينية القديمة، حيث بدأت تتسع المدينة مكانياً فاتحة بواباتها القديمة على أفق أرحب زمانياً أيضاً. هذا ما يحدث غالباً في مراحل التغيير. مما رسم صورة جماعية «متناغمة» إلى حد ما، في مناخ عام سمته الانفتاح، الاختلاط والحوار. بالتالي تكوّن شعور جماعي يرى ضرورة التغيير. لا أحد يمكنه الخروج عن مناخ مرحلة ما، حتى وإن ادعى الاستقلالية، هذا هو حال النساء أيضاً. وحين ركزنا على المناخ وعلى العدوى التي يثيرها في ترويج أفكار جماعية، فإننا نشير إلى الجدلية القائمة بين التمثلات الفردية والجماعية، حيث يتم تقاسم أفكار مشتركة ومشاعر جماعية. في هذا المناخ انبثقت أشكال وجود جديدة للنساء، سنرى تعبيراتها المتنوعة في حيواتهن.

٢ ـ كيفيات دخولها إلى السياسي: العام يتجسد في الشخصي

في هذه الصيرورة السياسية عبرت النساء عن كيفيات تسيسهن، نختصرها بأربعة عوامل: الناصرية، الحي، الصداقات، العائلة. وإن فصلنا هذه العوامل عن بعضها البعض لأسباب إجرائية، إلا أنها تتداخل في ما بينها في أكثر الحالات.

١ ـ **الناصرية:** بعضهن رأى في الناصرية دافعاً قوياً للعمل السياسي، لأنها «كانت قوية ومؤثرة في الجو العام» كما أعربت زهوة مجذوب، وشكلت خضة فكرية هزت وعيهن السياسي «فعبد الناصر أيقظنا»، قالت منى سعد، «كان الشعور القومي في أوجه، وساد الإحساس بضرورة التحرك للقيام بشيء ما، من أجل تجسيده وتحقيقه عملياً» أضافت ديانا السمرا والتي قررت بعد موته «العمل على الأرض». من جهتها

كان يرأسه تقي الدين نبهاني مناصرون لكن لم يكن بينهم نساء، ربما لأن موقفه السياسي اصطدم بالرأي العام الصيداوي ـ الناصري بامتياز ـ لأنه كان ضد عبد الناصر. أما عباد الرحمن فكانت حركة أخلاقية اجتماعية غير سياسية. أما مناصرو الحزب السوري القومي الاجتماعي فكانوا قلة. يبدو أن نبيهه لطفي ومهى لطفي انتمتا إلى هذا الحزب لفترة وجيزة كرد فعل من قبلهما على اغتيال انطون سعاده، تبعاً ليوسف الجباعي. كما انتمت أقلية إلى الحزب التقدمي الاشتراكي، بالرغم من علاقات كمال جنبلاط الوطيدة مع المدينة، فكانت هيام البزري المرأة الوحيدة التي انتمت إليه ولفترة قصيرة. كما كان في المدينة تكتل صيداوي مع معروف سعد سمي الجبهة العربية الشعبية، كما قال توفيق عسيران، لم يضم أية امرأة.

ركزت نازك المجذوب على التوجه الوحدوي الناصري، فكان دافعها الوحدة بين مصر وسوريا. أما الحاجّة عفيفة البابا فكان إيمانها بعبد الناصر ـ الذي شكل حلماً لها، استمر في مسار معروف سعد ـ دافعها. يمكننا القول إن الحركات القومية وجدت سنداً لها في الناصرية، كذلك الأمر بالنسبة للناصرية[١]، وسنداً آخر هو الحركة الشعبية مع معروف سعد.

٢ ـ **الحي:** عدد منهن دخل السياسي من باب الانتماء إلى حي معين، حيث كانت القرابة والجيرة مع الشباب المسيس هي المحرض على الانضمام إلى الحزب أو مناصرته. هذا هو حال نازك وزهوة وسهام وعناية جميعهن من آل المجذوب ـ اللواتي كن يسكن في الحي الوسطاني. واللافت للنظر أن معظم أهل هذا الحي كانوا بعثيين أو مناصرين للبعث. في حالة أخرى كان للحي دور تقييمي في انضمام ديانا السمرا للحزب الشيوعي، فانقسم بين مؤيد لخيارها ومعارض له.

٣ ـ **الصداقة:** أكد البعض منهن دور الصداقة في تسيسهن، فهي أتاحت لهن الاحتكاك الفكري والحوار والجدال مع الآخر، والذي كان يتم في المدرسة أو خارجها، أو حتى أحياناً في البيت، تواصل أدى إلى إيقاظ الوعي وتهيئه للانطلاق.

٤ ـ **الأب:** أجمعت الغالبية على دور الأب المميز في مسارهن، فكانت ثقافته السياسية حافزاً لوعيهن للاهتمام بالشأن العام، فوالدا ماجدة فاضل وزهوة مجذوب يقرآن الجريدة يومياً ويستمعان إلى الأخبار، فيناقشان أمام الأسرة الأخبار ويشترك الجميع في النقاش. كان هذا أحد حوافزهن للعمل السياسي. كما أن اهتمام الأب بالقضايا السياسية ومواقفه الوطنية والقومية كانت أيضاً دافعاً مهما لهيام البزري وماجدة فاضل. من جهتها أضافت عناية المجذوب بعدا جديداً لدور الأب، حين حددت أهميته بموقفه النقدي من كل القضايا. فهو إضافة إلى ثقافته الوطنية ـ ضد الأتراك ـ فإن ممارسته النقد في القضايا الدينية والاجتماعية، رغم تدينه، أثار لديها الحس النقدي، فأخذت عنه الشخصية القوية العقلانية. كما وافقت الغالبية على انفتاح الأب وعدم تزمته[٢]، وتشاوره معهن في بعض القضايا الشخصية والعائلية مشجعاً تعبيرهن الذاتي، إضافة إلى تزودهن بالعلم.

(١) يعتقد توفيق عسيران أن عبد الناصر يشدد على دور المرأة.

(٢) «كان والدي يعمل في الأشرفية ويخالط المسيحيين، مما أكسبه انفتاحاً، فكان محفزاً لي لانطلق في المجال العام والخاص دون أن ينصب أمامي الممنوعات» قالت سهام.

أما دور الأب الزعيم، فلم يكن مختلفاً عن أقرانه. فمنى سعد تؤكد تأثيره القوي على شخصيتها بسبب تمسكه بالعلم وانفتاحه الفكري الذي فتح لها الأبواب لتقتحم المجال العام. لم يكن الأب السياسي متسلطاً كما أكدت رقية البزري ومنى سعد، كان الحوار يسود علاقتهما، فرقية البزري تمتدح صفات الأب السياسي الديمقراطي، وتبين تأثيره على اهتمامها بأمور الناس ومعالجة مشاكلهم. من جهتها تؤكد منى سعد على اختلافها معه أحياناً حول القضايا السياسية، فهو لم يفرض يوماً رأيه بالسياسة أو بالدين، بل أعطاها ثقة بالنفس وحب المشاركة لما عندها مع الآخرين. مما جعلها تعمل من أجل حقوق الإنسان والديمقراطية والعلمنة.

دور الأب الإيجابي لم يمنع البعض منهن من الاصطدام به ومواجهته في بعض المواقف، فماجدة فاضل أمام رفضه قيادتها لتظاهرة نسائية في ١٩٥٨ ـ كان ظابطاً في الدرك وكان مطلوباً منه قمع هذه التظاهرة ـ أصرت على موقفها وتجاوزت رأيه بمساعدة من إخوتها وأمها، ففوجىء بها على رأس مظاهرة تندد بالنظام الذي يمثله!! وهذا ما فعلته عناية مجذوب، حين وجدت تناقضاً بين طروحاته المنفتحة وسلوكه حيال القضايا الاجتماعية. فاختلفت معه حول لبس الإشارب، فما كان منها إلا أن استخدمت المنطق النقدي الذي يستخدمه لترفض الانصياع لرغبته.

لا نغفل في هذا المجال وفي بعض الحالات دور الأخ الأكبر الذي كان مسيساً، فأخو نزيهة السيد كان بعثياً وكانت اجتماعاته السياسية تتم في البيت «ذلك نبهني إلى أمور كثيرة عليَّ الاهتمام بها». كما كان أخو ماجدة فاضل مشجعاً لها لمواصلة الدرب. وهي الوحيدة التي تأثرت بوجه نسائي هو جدتها، فجميع الأخريات كان تأثرهن الحاسم بالأب. تروي ماجدة عن جدتها وهي سيدة وقرّاءة للقرآن وللسير، كانت في كل ما تقرأه تؤكد حق الإنسان في المدافعة عن حقه، فالأدعية تمجد الله والقوة والكرامة، «إنها معايير أخلاقية اكتسبتها منها، فالمطالبة بالحق تعني الدخول بالسياسة للمطالبة بالحقوق.

في النهاية نستنتج أن هذه العوامل مجتمعة أكسبتهن شخصية قوية مميزة، وعززت صورتهن عن أنفسهن، وثبتت مواقعهن في المجتمع. لقد اهتممن باكراً بالسياسي (الحاجّة عفيفة البابا، ناديا البزري..) ودخلن العمل الحزبي ولم يتجاوزن ١٥ سنة. فأحساس الحاجّة عفيفة كامرأة عميق بالحرية، متمسكة بمقولة «إنا خلقنا أحراراً» لتؤكد إمكانياتها ليس بالمقارنة مع الرجل إنما بالمقارنة مع القدرات والامكانيات. فهي سجنت عدة مرات أيام الانتداب لأنها تحدت المستعمر. كما شاركت في المظاهرة الشهيرة التي

كانت في مقدمتها نجاة عسيران وحكمت الصباغ وغيرهن[١]، فالسياسة بدمها[٢]. الصلابة والجرأة والصراحة والإقدام سمات مشتركة لديهن، أهلتهن للنشاط في المجال السياسي وهن مستندات إلى مرجعية فكرية ومؤسسية وعائلية.

٣ ـ ماهيات الدور السياسي وحدوده

لم أجد أفضل من تعليق عناية مجذوب، على تصريح أحد الذين قابلتهم حول محدودية دورهن، كي أعرض ماهية الدور السياسي للنساء في صيدا: «لا يمكن قبول هذه الطريقة في الحكم. يجب أن نحكم على الأمر من خلال الحجم الذي احتلته هذه المسألة في حياتهن، وهو كبير». هذه الطاقات الفاعلة في الميادين واللحظات توفر ثقافة تتكون من ممارسات جديدة تؤسس لوجود إنساني للمرأة مختلف وغير قائم على الإرغام. بل هو نابع من رغبة جياشة في الفاعلية كصناعة للهوية وتناسل للكينونة. لدينا فئتان من الحزبيات وغير الحزبيات، سنتناول كل فئة بمفردها.

١ ـ **دور الحزبيات:** يقول إليوت «إن الواقع لا يمكن أن يحرم من الأصداء الأخرى التي تقطن الحديقة» بهذه الروحية أنصتنا إلى نشاطهن والذي حصرناه بثلاث مراحل: ما قبل الانتماء الحزبي، أثنائه، وبعده.

ما قبل الحزبية: كانت هيام البزري إلى جانب أبيها في اهتماماته السياسية فنشطت معه في حملة أغادير وحملة مصر وكانت البنت الوحيدة، كما ساعدت في أوائل الخمسينات جمعية المؤاساة والتي كانت كلها رجال. أما عناية مجذوب فهي احتجت على الاستعمار الفرنسي وعلى طريقتها أثناء طفولتها، فأحرقت كتاب الفرنسي في المدرسة. كما شاركت وهي طفلة في مظاهرة ١٩٤٣ الشهيرة.

مرحلة الحزبية: لا بد من التنويه أولاً بأن معظمهن دخلن البعث في أوائل نشوئه وكن صغيرات في العمر وطالبات في المدرسة، عددهن قليل إذا ما قورن بعدد الرجال، وتركنه حين تم الانفصال. أما هيام البزري والتي انتسبت إلى الحزب التقدمي الاشتراكي وهي صغيرة، لم تستمر تجربتها فيه أكثر من سنتين، لتنتقل بعدها إلى

(١) عن هذا الحادث تروي أنها هيجت المدرسة لتشارك في التظاهرة وكانت شجاعة لدرجة ضربها الظابط الفرنسي!!

(٢) حين سألتها إذا تعرض لها أحد لأنها امرأة، أجابت بتأثر أنه قيل لها إنها «أخت الرجال» مما أغضبها لأنها معتدة بالصورة التي «خلقها اللّه عليها».

نشاطات سياسية غير حزبية. أيضاً دخلت ديانا السمرا الحزب الشيوعي وهي طالبة.

أقامت الحزبيات دورات تثقيفية أو شاركن بها. ثم اهتممن بنقل المعلومات، إلى النساء: في البيت، الحي، المدرسة، التي ترتكز على مفاهيم القومية والعروبة والاشتراكية، مدعمين الشرح بالمواقف كما صرحت ماجدة فاضل، فكان نشاطهن متوجهاً إلى المتعلمات وإلى النساء الشعبيات، بدافع التعبئة ولاستقطابهن. وكن يحضرن الاجتماعات الحزبية ويساهمن في النقاش ويقمن بقراءات محددة تتم مناقشتها. كذلك كن يناقشن البيانات السياسية، يشاركن في المظاهرات ويعملن على إنجاح الإضرابات وتحريض الطالبات عليها، في مناسبات قومية من أجل الجزائر والقضية الفلسطينية وفي ذكرى وعد بلفور وتقسيم فلسطين. إضافة إلى توزيع المناشير والبيانات وإلقاء الهتافات والخطابات الحماسية في المدرسة أو في الساحات العامة، مثل ماجدة التي ألقت خطاباً في ساحة باب السراي تأييداً لمعروف سعد شارحة لماذا انتخابه، وزهوة مجذوب التي خطبت في مائة امرأة في «البستان الكبير».

والملفت للنظر أنهن كن يدفعن من مصروفهن الشخصي رسم اشتراك شهري في حزب البعث! كن أيضاً يقمن برحلات إلى مصر وسوريا والعراق للتعبير عن مواقفهن السياسية ولإجراء حوارات. وفي بداية الثورة كن يمررن رسائل شفوية، ينظمن حملات تنظيف للأحياء، ويشاركن في القضايا المطلبية، فديانا ساندت حركة الصيادين ضد السلطة. وعناية مجذوب شاركت في مناسبات عدة في زيارة المحافظ ورفع المطالب له، أما هيام البزري فهي تدربت على السلاح أيام الثورة ولمدة ستة أشهر، وعملت في المستشفى الميداني الذي أقيم أيامها. كذلك نزيهة السيد تدربت على السلاح وعلى الإغاثة.

لعبت نزيهة السيد في مصر، دوراً فعالاً فهي تابعت الحلقات الحزبية مع طالبات عربيات، وكانت البنت الوحيدة في رابطة الطلاب اللبنانيين، تنظم محاضات ولقاءات مع الروابط العربية، وتقوم باجتماعات دورية من أجل القضايا العربية. وهي تطوعت إلى بور سعيد لمساعدة المنكوبين. كما ساهم البعض منهن في دعم حركة فتح عن طريق جمع التبرعات وتوزيع بيانات ضد الجيش في أواخر الستينات وأوائل السبعينات.

ما بعد الحزبية: في الحقيقة غالبيتهن توجهن بعد الانتماء الحزبي إلى العمل في أطر جديدة وهي الجمعيات التي تكاثرت في أواخر الستينات وأوائل السبعينات، وهي تعبر عن تشكيلات ثقافية سياسية جديدة تعيد رسم المكان ضمن مفهوم آخر للسياسي يتخلص من البداهة ويعيد النقاش حوله. ربما يمثل هذا التحول مفهوم «الرحلة إلى

الداخل[1] بحيث أن أشكال العمل السياسي الجديدة تمس الفئات المهمشة وتدفع أكثر في اتجاه الاعتراف بها، وهي تطال اليومي والمحلي في تنوعه وتناقضه. هذه الرحلة تشكل إطاراً مشهدياً آخر امتد إليه نشاط النساء السياسي، هكذا نشطت نزيهة السيد عبر جمعية المقاصد كعضوة في هيئتها الإدارية، حضرت في إطارها معرض الفن الأول والثاني للجنوب والمعرض الحرفي الأول والثاني للجنوب، وكانت خطوة رائدة في جمع صيدا بالجنوب على الصعيد الثقافي الفني، كما كانت عضوة في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي. في عام ١٩٧٨ كانت مسؤولة عن مخيمات النازحين من الجنوب لتأمين التغذية والتموين. سهام مجذوب بدورها عملت ضمن جمعية الخريجين وجمعية إسعاد الطفولة، واهتمت بدعم المدرسة الرسمية والطلاب الفقراء فيها، كما ساعدت المنكوبين إبان عملية «عناقيد الغضب». واهتمت نازك مجذوب بالعمل الاجتماعي والتربوي، فتعترف أن تجربتها السياسية القديمة كانت عاطفية، الآن أصبحت أكثر عقلانية، فهي تعطي الأولوية للقيم الثقافية وتفضل العمل من خلال التعليم والنشاطات التربوية. وديانا السمرا عملت في لجنة حقوق المرأة ومؤسسات غريغوار حداد والآن تعمل في مؤسسة معروف سعد. وهيام البزري تعمل في جمعية خريجي المقاصد والأميركان وأيضاً في الصليب الأحمر والمجلس النسائي اللبناني. أما ماجدة فاضل وعناية مجذوب ـ التي تشارك في «بلدي بلديتي» ـ فهما عللتا تحولهما إلى العمل في الجمعيات فقط بسبب الفراغ الحزبي. عدد منهن أكد ممارسته العمل السياسي في نطاق المهنة والوظيفة، من حيث ربط المعرفة بالواقع الحالي ونقده، وطبقن المناقبية الحزبية في العمل، وحاولن خدمة مدينتهن من خلال مركزهن المهني.

٢ ـ **حدود الدور الحزبي:** يعيد النظر هذا الدور السياسي الذي مارسنه، في مفهوم السياسة وصورها التقليدية، كاشفاً عن وجوه المعرفة العملية الماثلة في النشاطات المتنوعة. مما يدعونا للالتفات إلى الجوانب المكتوبة في أعمال الفكر التي تستدعي رؤية هذا الدور من زاوية مختلفة عما درجنا عليه، وبالتالي نعيد الاعتبار إلى «المنطق العملي للسياسي» الذي تحلت به هؤلاء النساء، القائم في مادة الحياة الاجتماعية كما تفصح عنها شروط العيش اليومية. من هنا أهمية هذه الظاهرة التي تضعنا في جو أقل ظلاماً وحجباً. لقد أجمعت النساء على أن دورهن طابعه تنفيذي في غالب الأحيان، كما كان

(١) استعرت هذا المفهوم من إدوارد سعيد في كتابه، **الثقافة والأمبريالية**، نقله إلى العربية وقدمه كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت ١٩٩٧، ص٢٧٤.

الحوار إيجابياً بينهن وبين الرجال، ذلك بسبب المعرفة الشخصية والصداقة وأحياناً القرابة، فلم تعانين من أي تفرقة على صعيد العمل. كن مقتنعات بما يقمن به بل متحمسات، وكان الجو ودودا دون حساسيات. جو متقارب لا متنافر يعبرن فيه عن أفكارهن بموضوعية ومسؤولية. لم تكن واحدة منهن في موقع القرار[١]، لكن الملفت للنظر أن غايتهن من العمل الحزبي لم تكن الفائدة الشخصية، بل كن ينحين نحو الفائدة العامة على الصعيد العربي وليس فقط على الصعيد المحلي. إذن على الصعيد الشخصي، السلطة أو الزعامة لم تكن من أهدافهن، بل العمل من أجل المصلحة العامة ويبدو أن هذه الصفة ما زالت موجودة عند النساء إلى اليوم. ربما هذه الخاصية الموجودة حتى عند النساء في الغرب[٢] هي أحد العوامل التي جعلتهن بعيدات عن مواقع القرار!.

الدور السياسي لغير الحزبيات

١ ـ دور المنتمية إلى فكر سياسي دون أن تكون حزبية.

نموذج آخر للعمل السياسي يتجلى في الانتماء الفكري إلى تيار سياسي دون الإلتزام الحزبي، فيهتم ببناء «منظومة من القيم» كما قالت حكمت صباغ، هدفها تحسين الحياة وتنمية الطاقات اعتماداً على المنطق والبرهان من أجل بناء مجتمع قادر على الحياة بين مجتمعات أخرى. يرى هذا النموذج أنه أكثر أهمية من الحزبية المستقرة التي يحافظ على رواجها. فحكمت أفادت أنها تمارس السياسة من خلال العمل التربوي والعمل على بناء الإنسان وإحلال الديمقراطية في العلاقات في المدرسة، سيما وأنها كانت مديرة ثانوية صيدا للبنات منذ أواسط الستينات. كانت من جانب آخر ضد السياسي «كشكل تعليمي تمثيلي وعظي»[٣].

يتيح هذا المسار السياسي لصاحبه النقد الجسور والمراجعة والتغيير بناء على العقل والتجربة فالمشهد السياسي لا يحدد بإطار، وبالتالي يشكل هذا المسار مجازفة

---

(١) يرى توفيق عسيران غياب المرأة في مواقع المسؤولية الكبيرة والقرار، كن خلف الكواليس يعملن في القضايا الاجتماعية والإنسانية والطبية.

(٢) صرحت إحدى النائبات الفرنسيات على التلفزيون الفرنسي أن المرأة في السياسي عموماً لا تبحث عن الفائدة الشخصية، عكس الرجل.

(٣) لم تكن شاهدة فقط على الأحداث، بل كانت تمارس مواقفها دون أن تكون قيادية «فالسياسة لم تكن هاجسي الأول» لتعبر ربما عن رفضها سبل العمل السياسي التقليدي.

بطرح أفكار جديدة أو بالنقد ونتيجة لذلك يحتفظ بمرونة عملية لا تؤدي في أي حال إلى إلغاء الآخر غير الشبيه. وهذا ما حققته فعلاً حكمت صباغ، فهي أتاحت لكل التيارات السياسية أن تمارس حضورها وتعبر عن نفسها في الثانوية واهتمت ببناء شخصية الطالب على قيم تؤهله ليكون منفتحاً على الآخر، مما خلق مناخاً عاماً ديمقراطياً تتمازج به الطوائف والتيارات السياسية دون إلغاء أحدها للآخر. تعلمنا في هذه الثانوية أن الحرية السياسية مسؤولية، تتراوح بين التكيف والمرونة وعدم الانغلاق ضمن مخطط نظري جامد لا مكان فيه للمختلف، بل استقبال الوضعيات المستجدة والتكيف معها. أما حدود هذا الدور وكما تراه حكمت فهو المساهمة في بناء «مؤسسة» ديمقراطية تتيح فرص التعبير والمعرفة المعمقة. إنه مسار سياسي فعال يساهم في بناء مجتمع يرتقي بمؤسساته.

٢ ـ دور المفاتيح الانتخابية

نتناول الآن مساراً سياسياً من نوع آخر صاحباته غالباً نساء شعبيات انغمسن في هموم الناس اليومية، عايشن تفاصيل المجتمع على كل الأصعدة. من أجل ذلك تمحور نشاطهن حول: الانتخابات والاهتمام بالقضايا الاجتماعية والصحية والتربوية. هذا لا يمنع وجود فئة متعلمة كان دورها بارزاً في الانتخابات.

بدأ نشاط الحاجة عفيفة البابا والسيدة ناديا البزري منذ الصغر، كما أسلفنا، بالمطالب الوطنية، فشاركتا بالتظاهر من أجل الاستقلال. ثم اشتركت ناديا من جهتها، بتظاهره طلابية للمطالبة بحقوق المرأة في المساواة في التجنيد. والملفت هنا ربط السياسي بقضية المرأة، الذي لم يكن شائعاً في ذلك الحين. وهي أفصحت أن زواجها طابعه سياسي، وكان مدبراً من قبل أهل معروف سعد ـ زوجها خال معروف سعد ـ الذين أرادوها لمعرفتهم بنشاطها وقدراتها المميزة حين قادت وهي صغيرة أول حملة إنتخابية لنزيه البزري والحاجة عفيفة اهتمت بالسياسة منذ الطفولة ففي الأربعينات كانت إلى جانب معروف سعد تهرب معه السلاح إلى المقاومة في أقصى الجنوب. كما ساعدت القيادات الفلسطينية في سوريا واليرموك حين كان تنقل إليهم رسائل شفهية حفظتها عن ظهر قلب. وفي هذه المرحلة المبكرة كانت تعمل لوحدها، «لأن النساء كن يخفن من هذا الدور».

احتكت هذه الفئة إحتكاكاً مباشراً بالسياسيين أمثال نزيه البزري ومعروف سعد

وكمال جنبلاط وجمال عبد الناصر. وقادت الحملات الانتخابية ـ الحاجة عفيفة ونانديا عملتا لصالح معروف سعد ـ التي تقتضي القيام بالجولات، تدقيق تذاكر النفوس، كشف التزوير[١] كن يحضرن لوائح الشطب، وأكدن تمسكهن بالصدق والنزاهة في العمل، كن معتزات بسلوكهن المختلف. عن الحاجة عفيفة يقول توفيق عسيران: «إنها شخصية ريادية قوية، امتازت بالجرأة والوضوح والتحرك السريع والحماس، أثبتت قدرتها على قيادة حركة انتخابية وليست سياسية بالمعنى الحقيقي للكلمة. «كما قامتا بدور الوسيط بين الزعيم والناس لإصلاح الأمور بينهما. كما أجرت الحاجة عفيفة اتصالات بعبد الناصر الذي استدعاها لتزوره[٢].. وقدمت المساعدات إلى الجنوب وإلى طرابلس «لأن معروف سعد كان شخصية وطنية وليس فقط صيداوية».

إضافة إلى النشاطات الانتخابية كانتا خلال العام تقومان بنشاطات تربوية: تقديم مساعدات للطلاب المحتاجين عند افتتاح العام الدراسي، إضافة إلى مساعدة بعض الطلاب الجامعيين. كذلك الأمر كانتا تؤديان خدمات صحية، تقول ناديا إنها أصبحت دون تخطيط منها، مسؤولة عن «بنك الدم في حي مكسر العبد»، بنك حي، فهي رصدت فئة دم كل أهل الحي. وألفت شرعياً في مرحلة لاحقة سنة ١٩٨٣ لجنة مكسر العبد، عملياً كانت هذه اللجنة قائمة منذ فترة طويلة. كما كونت لجنة عام ١٩٧٣ من بنات الحي لتعليمهن الإسعافات الأولية[٣] كما اجتهدتا في النشاطات الاجتماعية: وضع لوائح المحتاجين وتصنيف احتياجاتهم، والعمل لتأمينها. ثم فتحتا بيتهما للمراجعة والطلبات وعرض المشاكل ومتابعتها، كانوا يطلقون على الحاجة لقب «الداية» لأنها كانت في الخدمة في كل الأقات. كما ساهمتا في تأليف لجان طوارى سنة ١٩٦٧ من أجل تدبير أمور المهجرين، كما قادتا عملياً لجنة التبرع والمساعدة للفلسطينيين في لبنان وسوريا

(١) طلبت ناديا من الجهة التي تعمل معها تقديم دعوى قضائية ضد أحد الأشخاص الذي كشفت تزويره، فكانت حريصة على حماية المنتخبة «حتى لا يلعب بعقلها أحد».

(٢) يذكر توفيق عسيران أن الحاجة ذهبت معهم للتعزية بوفاة عبد الناصر، فكانت الصيداوية الوحيدة في الوفد.

(٣) روت حادثة طريفة معبرة جداً عن الفروقات في العمل السياسي بين المثقف والشعبي، إذ استدعاها حسن الشريف ـ المدير السابق لثانوية المقاصد ـ من أجل تكوين هذه اللجنة، فروت بتهكم كيف أن المثقفين ـ حسن وزوجته ثريا وغيرهما ...ـ يخططون ويفكرون طويلاً ويمضون شهوراً يدرسون الحيثيات، وهي أنجزت ما عليها بأيام معدودة، وبقيت تنتظر بضجر التنفيذ، فبادرت ودعت أحدهم لتدريب البنات ونفذت الدورة في مدة قياسية!

والعراق لتقديم المواد الغذائية والطبية[١]. أما الحاجة عفيفة فهي تصنف نفسها ليس كمفتاح إنتخابي فقط بل كمرشدة اجتماعية فهي فتحت مركزاً لتعليم الخياطة والتدبير المنزلي، مساهمة أحياناً من مالها الخاص، وحين سألتها لماذا توقفت عن الاهتمام بالسياسة أجابت «لأن كلمتي لم تعد مسموعة لقد تغير الناس»[٢]!.

أما هيام البزري وهي أهم مفتاح إنتخابي لنزيه البزري، كانت قائدة لكل العمليات الانتخابية، فهي تخطط وتوزع الأدوار. وهي مدبرة في اللحظات الحرجة، فلقد ألفت فرقة لدخول المدينة القديمة أثناء حصارها من قبل جماعة معروفة سعد، في الوقت الذي لم يكن متاحاً للرجال الدخول إليها، فأدارت الانتخابات. ولقد فصلنا في الجزء السابق نشاطاتها الأخرى كونها كانت حزبية لفترة محددة.

حدود هذا الدور

هكذا تجاوز دورهن مسألة الانتخابات ليطال مجمل القضايا الاجتماعية والصحية والتربوية. وكما رأينا كانت منفذة أحياناً، وقيادية في أحيان أخرى، وبرأيهن الخاص، كانتا ـ ناديا البزري والحاجة عفيفة البابا ـ قيادات بكل معنى الكلمة[٣] كيف تكون الموازاة بين ما يجري على الأرض وبين ما يجول في الفكر؟ النتيجة التي طلعت بها تفيد أن هؤلاء النساء كن سعيدات في عملهن السياسي لأنهن كن يمارسن ما يفكرن به وبالتالي يحققن عملياً تطلعاتهن ورؤاهن. ولم يعشن الفرقة بين الفكر والممارسة، بل كن في غاية الانسجام. لقد مارسن وجودهن السياسي في مجال ينتمين إليه دون صراع في المجال العمومي، وشكلن تحدياً في عدم ذوبانهن في الآخر، فمارسن العمل السياسي من خلال رؤاهن وأسلوبهن. ربما من أجل ذلك، رأيتهن سعيدات من إنجازاتهن الماضية. هذه القراءة الحياتية للدور السياسي التي قمنا بها تشكل البعد المفقود في سردياتنا، والمطلوب توسيعها وتعميقها. إنها سردية مضادة توهن السردية الرسمية لتواريخ النساء السياسية.

---

(١) تروي ناديا عن ورشة الخياطة التي أقامتها في الحي لتأمين اللباس للمهجرين وإرساله إلى عمان، وكيف اجتهدت لتأمين المواد الأولية، فوزعت المهمات لإنجاز العمل بالسرعة المطلوبة..

(٢) شخصية ظريفة ما زالت متحمسة إلى الآن حين تسرد تجاربها المعتزة بها، رغم أنها فقدت ابناً شهيداً في الحرب، كما هدم الإسرائيليون منزلها.

(٣) تعتبر الحاجة نفسها مسؤولة عن شؤون البلد الاجتماعية عن طريق رصدها للاحتياجات وتقديم المساعدات. بدورها تعتبر ناديا نفسها مسؤولة عن إدارة حي من أحياء المدينة، إضافة إلى نشاطاتها الأوسع وطنياً وقومياً.

٣ ـ بنات النواب

الدور

حين تعيش المرأة في بيت سياسي كيف يكون تاريخها الخاص؟ هل بالضرورة ستصير سياسية وعلى طريقة الأب ـ الزعيم؟ هل تحقق الاعتراف بها دون أن تعيد رسم المكان المحجوز للزعيم؟

حددت منى سعد ورقية البزري ماهيات دورهن دون اللجوء إلى التضخيم والمبالغة، بل غلب حديثهن التقليل من شأنهن مقارنة بدور الأب. يبدو أن دورهن تمحور حول محوري العلاقات العامة وتقديم الخدمات.

على صعيد العلاقات العامة، رافقتا الأب في زياراته السياسية وفي المناسبات الاجتماعية. واهتمتا بزوار البيت عن طريق النقاش السياسي معهم. كذلك ساهمت رقية البزري في الحملات الانتخابية في مرحلة متأخرة: القيام بالزيارات لأهل المدينة وإنجاز بعض الأعمال المكتبية، ومناقشة الناس وإقناعهم ببعض القضايا السياسية التي تمثل توجه أبيها. كما كان يطلب منها فك بعض الخلافات الزوجية والتداخل مع الأطراف لحلها. يجب ألا ننسى أن حل الخلافات الاجتماعية والأسرية كانت من مهمات الزعيم السياسي.

أما منى سعد فلقد عبرت عن خجلها من الزيارات الانتخابية، إلا أنها كانت ترافق والدها في زياراته للمرضى أو للتعزية. وكانت دائماً موجودة في جو رجالي حتى خارج نطاق الانتخابات[١]. وتشير إلى تشابك الحياة الخاصة بالعامة، بحيث أن مشاركتها هموم الناس في البيت تجعلها بشكل لا إرادي مهمومة بها، محاولة المساهمة في حلها[٢]. وتعتبر أن إرثها السياسي لم يكن تقليدياً فاتجهت إلى النشاطات الاجتماعية والثقافية والتربوية ذات البعد الإنساني، غير مفرقة بين الجنسيات[٣]. إذن مفهومها للسياسي إنساني، فهي عملت ممرضة بفترة ما لمساعدة أهل الجنوب[٤]،

(١) وصفها توفيق عسيران بأنها لم تكن متجذرة في الحركة الصيداوية المحلية، كانت من أنصار الجبهة الشعبية، ربما لأن أفقها أبعد من المدينة، فكانت مهتمة أكثر بالقضية الفلسطينية.

(٢) حتى أن قضية فلسطين التي كانت قضية والدها، صارت جزءاً من حياتها، ففي الطفولة كانت وأخوتها تغطية لأبيها لنقل السلاح إلى أول مقاومة في الجنوب.

(٣) ففي المجال التربوي ساهمت في تأسيس روضة غسان كنفاني في المخيم، كما أسست روضة الشهيد معروف سعد.

(٤) هذا لم يمنعها من معالجة جريح إسرائيلي سجين في ٦٧ حين كانت ممرضة في الصليب الأحمر. وفي مرحلة لاحقة عاشت فترة طويلة في أوروبا حيث اهتمت بتدريس أولاد العرب اللغة العربية.

وعملت دائماً إلى جانب مهنتها في مؤسسات أهلية، هذه ظاهرة عند كل المستجوبات، كما رأينا.

الملاحظ بالنسبة لرقية البزري أن مفهومها للسياسي هو تقديم خدمات لكنها كفت عن أية مشاركة في القضايا العامة. وأظن أن المعنيين يتكاملان، فأليوت يقول «ما من شاعر، ما من فنان في أي فن، يملك معناه الكامل منفرداً»، بالتالي يمكننا تطبيق الفكرة نفسها على معنى السياسي هنا من الملاحظ أيضاً أنه في الحالتين اختير الأخ ليكون الوريث السياسي وليس البنت، تمشياً مع التقاليد المحافظة تجاه النساء، بمعزل عن التوجه السياسي للأب.

خلاصة القول إن القاسم المشترك بين هذه الفئات هو اهتمامها بالشأن العام وإن اختلفت في أسلوب العمل أو في المرجعية الفكرية التي استندت إليها. وبالتالي من الطبيعي أن نتساءل، بعد أن استنتجنا مناخ الانسجام الذي كان سائداً بين المعلمات الثلاث: المدينة المؤسسات التربوية والاجتماعية، السياسة، هل اكتفت النساء في تحقيق ذواتهن في العام، أم حاولن التدخل أيضاً في الخاص من أجل تغييره؟

السياسي الاجتماعي وقضية المرأة

لم تكن قضية المرأة مدخلهن إلى السياسي، كما رأينا في الجزء المخصص لأسباب تسيسهن. فلقد أكدن كون تفكيرهن خارج دائرة امرأة رجل، إذ لم يكن لديهن غاية للوصول إلى هدف شخصي «لم يكن هدفي أن أصبح شيئاً»، جملة ترددت مراراً في أحاديثهن، فالقضية بالنسبة إليهن عامة وليست شخصية. كن يعملن سوياً والرجال دون تفرقة أو تمييز، لدرجة احتفاظهن بصداقتهم إلى الآن. إضافة إلى انفتاح الأهل وقبول رغباتهن في العلم[١]. كانت مترتبات هذا الموقف أن تكون الإبنة مجتهدة ومسؤولة ومحافظة على صورتها في المجتمع. ولم يحل اللباس المحافظ في بعض الحالات دون نشاطها القيادي السياسي وتحدي السائد باختيارها التخصص والمهنة. لم يشعرن بالتفرقة في التعليم أو بالمعاملة[٢] أو في العمل.

(١) تقول نزيهة «يمكنني القيام بكل ما أريده، أردت إكمال تعليمي في القاهرة، ذهبت إليها، أردت عملاً مختلفاً فحصلت عليه» ـ رئيسة دائرة في الإحصاء.

(٢) كنت أشارك في الرحلات مع نادي الخريجين وأمارس السباحة.. لكن الجو العام كان محافظاً حتى على الرجل» تقول سهام.

هكذا اعتقدت الغالبية أن قضية المرأة هي قضية اجتماعية، لا يمكن فصلها عن قضايا المجتمع[١]. ففي تلك الفترة غلب الاهتمام بالقضايا العامة. و«كانت المسألة منذ البداية من لديه الحماس». كما واصلن هذا الموقف إلى اليوم، فهن غير مؤمنات بالفصل، ويشعرن بالحرج حين يشاركن في تجمعات نسائية، ويعتقدن أن طرح قضية المرأة بشكل منفصل تم بمرحلة لاحقة، على أثر خفوت الأحزاب، فأصبحت قضية المرأة هي المدخل إلى السياسي. كأن انحسار المد الأيديولوجي المترافق مع خروج المرأة بشكل أكبر إلى العام أجج إحساسها بالتمايز. برأينا أن التدخل في العام من باب قضية المرأة، بعد أن كان من باب الحزب، هو أيضاً عمل سياسي لكن من نوع آخر وعلى مستويات أخرى. فمفهوم السياسة التقليدي يشتمل القضايا الكبرى وطبعاً قضية المرأة لم تكن من ضمنها، وكان الهم الجماعة وليس أفرادها، كما علينا ربط موقفهن بظروفهن الأسرية المناسبة لانطلاقتهن[٢] يبدو لنا أنه في مرحلة الخمسينات والستينات كانت فسحة مشاركة المرأة السياسية أكبر من المرحلة اللاحقة، ربما لأن التيار البعثي والقومي كانا يعبران عن الجو السائد في المدينة، لذلك ارتضى الأهل انضمام بناتهم إليهما، إلا أن الأحزاب العلمانية تربك الأهل وتقلقهم بطروحاتها، على ما نظن.

وإذا كان صحيحاً أن قضية المرأة لم تكن مدخلهن إلى السياسي، في الغالب، إلا أنه كانت مفاعيل السياسي واضحة على شخصيتهن وسلوكهن الاجتماعي في الأسرة وفي المجال العام. اكتسبن من جراء العمل السياسي ثقة بالنفس ومكانة في المجتمع، واستقلالية بالقرارت، وتحمل العوائق والتغلب عليها، والتعبير بحرية عن القناعات والدفاع عنها، وممارسة النقد الذاتي وحرية التعبير في الأسرة. وأتقنّ تنظيم الوقت وتوزيعه بالشكل الملائم، والجمع بين نشاطات متعددة. أدى السياسي أيضاً كما قالت حكمت صباغ إلى الوعي والتنور وممارسة الوجود بشكل فعال، مما حفزها على الالتزام بقيم ثقافية وقبولها الاختلاف بالموقف، وهي تشدد على رفضها تغليب السياسي على الثقافي، ومن تجربتها في الثانوية اكتشفت الطاقات النسائية المهمة. أما ماجدة فاضل فإنها استقت من الحزبية المثل، وطبقتها على حياتها وفي عملها وعلاقاتها مع الناس،

(١) حين رأت ماجدة فاضل القهر والفقر في القرى الجنوبية استنتجت أن التمييز ضد المرأة ضعيف. أما عناية مجذوب فإنها أكدت انتماءها إلى قضية فكرية، فلم تهتم بالسياسة لأنها امرأة.

(٢) زهوة مجذوب هي الوحيدة التي شذت عن هذه القاعدة، إذ عبرت عن وعيها منذ البداية لقضية المرأة وإعجابها بالنماذج النسائية المتميزة الشخصية.

فأصبحت شخصية صدامية لا تقبل المهادنة. وتعترف نازك مجذوب بأن الحزب ينمي الشخصية، يقويها ويكسبها ثقافة ومعرفة، فاهتمت في إدارتها لمدرسة مقاصد البنات في تكوين شخصيتهن. عموماً اتخذن مواقف عقلانية في الحياة الخاصة والعامة، وتفتح وعيهن على أهمية دورهن في المجتمع، وزاد الاحتكاك بالناس مرونتهن ونمى حسهن العملي، كما قالت رقية البزري. بحثن عن الشبيه في الزواج، ولم يخترن المختلف. فالحزبيات تزوجن من حزبيين أو مناصرين، فالشبه يعزز وضعيتهما الجديدة ويؤكدها. والبعض اختار زواجاً مماثلاً في السياسي مختلفاً في الاجتماعي ـ الفئة الاجتماعية أو المذهب الديني. أثرن في تربية أولادهن من حيث تكوين شخصيتهم وإعطائهم الفرص لممارسة اختياراتهم، وكذلك في المحيط. الوحيدة التي أثارت علاقة الأنوثة بالتحرر هي عناية مجذوب، والتي صرحت بأنها كي تثبت تحررها خبأت أنوثتها. ربما نفهم هنا بعداً آخر يوضح لنا عدم ربط قضية المرأة بالسياسي آنذاك.

خاتمة

أن يكتب المرء عن دور المرأة السياسي، يقتضي منه أن يقرر إذا كان للنساء دور أم لا، الأمر الذي يتضمن بدوره تأييداً أم معارضة لحقهن في ممارسة هذا الدور. وأنا حين قررت التأييد، انبنى موقفي على مسألتين، الأولى تعود إلى ذاكرتي الشخصية التي رفضت الانخلاع من نقطة واضحة وهي معايشتي عن قرب لأختي الحزبية ولصديقاتها. والمسألة الثانية تعود إلى أن النساء ما زلن عاجزات عن التدخل في الإنشاء التاريخي الاجتماعي المكتوب عنهن، فكانت بادرتي المتواضعة والمحدودة سردية جديدة هدفها أن تصبح النساء ذواتاً مستقرة إنشائياً في تاريخ المدينة. إذا كنا نعرف القليل عن دور المرأة السياسي في صيدا فذلك لأن تاريخ المدينة الحديث هو بالإجمال تاريخ شفهي أولاً، وثانياً لأن فهم هذا الدور مرتبط عند الناس بمفهوم تقليدي للسياسة تجسده الزعامة واحتلال المواقع، ضمن معايير القوة والسلطة. الحقيقة أن هذا الدور يروغ عنا، لأنه ينتمي إلى فضاءات متعددة، وهذه حقيقة لصيقة بالمرأة التي تزاول أدواراً متعددة لكن بطرق غير متعارف عليها وغير مقننة، لأنها خارج المعايير السائدة. وما زالت طاقاتها لا دار لها في المشهدية الاجتماعية/ السياسية، فهي مزاحة من المركز وماثلة بين المجالات واللغات. إن أهم الاستنتاجات التي توصلنا إليها تواريخ النساء السياسية، هي حالة الانسجام التي كانت تعم المجال الاجتماعي/ السياسي،

عكس ما يؤكده بعض الدارسين حول تشظيه[1] الراهن، كنتيجة لسقوط العقائدية. لم يعشن التناقض بين الفكر والممارسة، ولم يعانين من الازدواجية بين الحداثة والتقاليد، بين الدين والدنيا. وصفن المرحلة بالعصر الذهبي، وأكدن أن الماضي كان أفضل من الحاضر! لكن أليس الماضي والحاضر متداخلين كل بالآخر، فهل يملك زمن معناه منفرداً؟

(١) كمال أبو ديب، **جماليات التجاور**، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٧.